تقديم

بقلم

الأستاذ الدكتور مصطفى سويف

أستاذ ورئيس قسم علم النفس

بجامعة القاهرة

هذه واحدة أخرى من بين مجموعة الدراسات العلمية الممتازة لموضوع الابداع ، وهى الدراسات التى توالى صدورها عن معمل علم النفس بجامعة القاهرة خلال العشر السنوات الأخيرة ٠

موضوع هذه الدراسة هو العلاقة بين تقدم العمر وبين قدرات الابداع عند الراشدين ٠ وقد توصل الباحث الى أن هذه العلاقة فى شكلها الاجمالى علاقة سلبية ، أى أنه كلما تقدم العمر بالشخص فى مرحلة الرشد انخفضت كفاءة قدراته الابداعية ٠ والبحث كله ينصب على تفصيل هذه النتيجة من زاويتين : احداهما زاوية قدرات الابداع ، والثانية زاوية الدوافع المحركة لهذه القدرات ٠

ففيما يتعلق بالقدرة المسماة « طلاقة الأفكار » تبلغ هذه القدرة أعلى مستويات كفاءتها فى العقد الثالث من العمر (أى الفترة الممتدة من سن ٢٠ الى ٣٠ سنة) ثم تبدأ فى التدهور بالتدريج بعد ذلك ٠ وفيما يتعلق بقدرة « الأصالة » نجدها تبلغ كذلك أعلى مستوياتها فى الفترة ذاتها ثم تتدهور بعد ذلك ولكن بشكل حاد وليس تدريجيا بطيئا كما هو الحال فى القدرة السابقة ٠ أما قدرة « المرونة » فيمتد مستواها الرفيع طوال العقدين الثالث والرابع ، وتأخذ فى التناقص بعد ذلك ٠ وأما قدرة « استشفاف المشكلات » فيكون تدهورها فى العقد الرابع من العمر ٠ وأخيرا نجد قدرة « الاحتفاظ بالاتجاه » تبلغ أعلى مستوياتها فى العقد الثالث وتتدهور بدءا من العقد الرابع

تدهورا تدريجيا · كذلك تبين فى هذه الدراسة أن طاقة « الدوافع » تتناقص أيضا مع تقدم العمر ·

هذه هى النتائج الكبرى أو الرئيسية للدراسة ، وثمة عشرات من النتائج الصغرى أو الفرعية ينتهى اليها الباحث ويقدمها فى ثنايا بحثه ؛ كل هذا من خلال سياق غنى بالمقارنات التفصيلية التى يعقدها بين دراسته وبين الدراسات القريبة منها أو المماثلة لها مما أجرى على عينات من الراشدين فى أوطان أخرى ·

ان الدراسة التى نحن بصددها دراسة جادة ، وعلى قدر كبير من الأهمية البالغة · وان امتلاء المكتبة العربية بهذا الطراز من الجهود العلمية واجب قومى وانسانى معاً ، فنحن مسئولون عما يرفع شأن أوطاننا ، وكذلك عما يزيد من حصيلة علمنا · وما نرجوه بعد ذلك هو أن يجد الكاتب وقد أدى بعض واجبه ، أن يجد القارىء الذى يتسع صدره وأفقه لكى يتلقى الرسالة ذلك التلقى الذى يؤدى بدوره الى ابداع جديد ·

ولا زلنا بعد ذلك نحمل مشاعر الامتنان لدار المعارف لما تبذله من جهد ممتاز ينتهى بالعمل الى هذه الصورة الأنيقة التى يسعد بها الكاتب والقارىء معاً ؟

القاهرة فى أكتوبر ١٩٨١

مصطفى سويف

تصدير

يقضى الفرد جزءا صغيرا من حياته فى عملية النمو ، بينما يقضى الجزء الأكبر منها فى مرحلة التقدم فى العمر • ومع ذلك ، فان علماء النفس قد أولوا ، والى وقت قريب ، كل اهتمامهم الى هذه الفترة المبكرة دون أن ينسحب هذا الاهتمام بصورة مماثلة الى تلك السنوات المتقدمة من العمر •

ويبدو كما تقول سيمون دى بوفوار (Simone de Beauvoir, 1973, p. 14) أن هناك مانعا سيكولوجيا يحول بيننا وبين النظر الى أنفسنا فى صورة ما سيكون عليه حالنا فى السنوات المتقدمة من العمر ، وكأن هذا الذى سنكون عليه ليس هو أنفسنا ذاتها • فنحن فى ربيع العمر نتصرف وكأن التقدم فى العمر هو تجربة لم تخلق لنا • فالى أن تحين اللحظة التى نجد أنفسنا قد اقتربنا فيها من الشيخوخة ، فهذه الشيخوخة هى شىء خلق لاناس آخرين غيرنا •

وربما ساهم هذا الاتجاه من جانب الباحثين فى أن تحظى فترة الطفولة والمراهقة بالجانب الأكبر من اهتمامهم متمثلا فى العدد الضخم من البحوث الذى تطالعنا به صفحات تقاريرهم العلمية ودوريات المجال الذى يعملون فيه • هذا على الرغم من أن دراسات التقدم فى العمر ما هى الا امتداد منطقى لعلم النفس الارتقائى يكمل معلوماتنا عن دورة حياة البشر • فاذا لم نستطع أن نعرف ما سوف نكون عليه فى الفترات المتقدمة من حياتنا فنحن لا نستطيع أن نعرف ما نكون عليه الآن •

ومن الملاحظ ، مع ذلك ، أن فترة العشرين سنة الماضية قد حفلت بجانب من اهتمام علماء النفس بهذه المرحلة المتقدمة من العمر • وقد أملى هذا الاهتمام ذلك التغير الذى طرأ على التركيب السكانى من حيث ازدياد

عدد كبار السن بدرجة ملحوظة فى السنوات الأخيرة ، وما تضمنه هـذا من ضرورة الوقوف على حدود قدرات هؤلاء فى ضوء ذلك التغير السريع فى الوسائل التكنولوجية الذى يسم تلك الحقبة من الزمن ٠

وفى اطار هـذا الاهتمام الذى أولاه علماء النفس الى دراسـة قـدرات الأفراد فى الأعمار المتقدمة ، برزت نتائج دراسات ليمان التى تضمنها كتابه « العمر والانجاز » (Lehman, 1953) لتشير الى حـدود قـدرات الأفراد الابداعية على امتداد سنوات الرشد ٠ وقـد أثارت نتائج ليمان هـذه الكثير من التعليقات والتساؤلات من جانب العـديد من الباحثين ٠ ولعل احـد التساؤلات الهامة هو : « هل هـذه النتـائج تشـير بشـكل حقيقى الى قدرات الأفراد الابداعية أم الى بعض العـوامل البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية الأخرى ؟ »٠فدراسات ليمان اعتمدت على الانتاج الابداعى كمؤشر لحدود هـذه القدرات ٠ الأمر الذى يغلف استراتيجية دراسـاته ببعض الصعوبات والمشكلات العديدة التى ستورد تفصيلا فى سياق تال ، وبالتالى عدم قـدرة هذه الاستراتيجية على الاجابة على التساؤل المطروح ٠ فالانتاج الابداعى ، وان لعبت القـدرات الابداعيـة فيه دورا بارزا ، فانه لا يمـكن التغاضى ، مع ذلك ، عن العوامل الأخرى العديدة التى تخرج عن حدود هـذه القدرات ، والتى يمكن أن يكون لها تأثيرها ايضا على الانتاج الابداعى ٠

وازاء هـذا كان لا بد من اجراء دراسة أخرى تجريبية تتجه بشكل مباشر الى دراسـة الموضوع الذى تناوله ليمان بالدراسة من قبل ، وتأخذ فى حسابها امكانية الاجابة على التساؤل سالف الذكر ٠ بمعنى آخر القيام بدراسة هـذا الموضوع من خلال الاعتماد على مؤشر آخر خلافا لمؤشر الانتاج الابداعى ، ألا وهو مؤشر الاختبارات السيكولوجية ، والذى يشير بشـكل مباشر الى القدرات الابداعية التى ينتظمها مجال التفكير الابداعى ٠ وهـذا هو ما شكّل اهتمام الدراسة الحالية ٠

وهـذه الدراسة فى سعيها نحو تحقيق هـذا الهدف ما كان لها أن تؤتى ثمارها المرجوة من خلال جهد الباحث منفردا ٠ فالنظرة الموضوعية التى أملت الصورة العلمية التى تمت بها معالجة الظاهرة الحالية موضع الدراسة انمـا

تملى على الباحث فى هـذا السياق أيضا الاعتراف بان هـذا العمل ما هـو الا نتاج جهود أشخاص عديدين ، ساهم فيه كاتب هـذه السطور بجهد ما ، ربما بدا ضئيلا اذا وضع موضع المقارنة مع ما أسهم به الآخرون ٠

واذا قـدّر لكلمة شكر فى هـذا السياق أن تشير الى ما أحمله فى عنقى من دين لأولئك الذين تبدو بصمات جهودهم واضـحة على العمل الذى بين أيدينا الآن ، فانى ابدأ بتوجيهها الى من غرس بذرة هـذا العمل وتعهـدها بالرعاية حتى أثمرت ما نحن بصدده الآن ، الى أستاذى الدكتور مصطفى سويف ٠ فقـد حدانى أستاذى بكل ما أمكن معه التقدم بخطوات ثابتة الى تناول هذا الموضوع ٠ لقد علمنى أول ما علمنى كيف يكون المنهج العلمى ، فى البحث ، وكيف يكون الطريق اليه ، علمنىكيف يكون الشخص طموحا فىتناوله للظاهرة وكيف يكون متواضعا فى دراستها ، حتى يكون من هـذا التوازن ذلك الثراء فى البحث ، وفى الوقت ذاته يكون المنهج العلمى الذى ترسمته نهجـا لى ٠٠ علمنى كل هـذا فى اطار من الأمن والحفز بغيرهما ما كان لهـذه الدراسة أن تتم على النحو الذى أردته ٠ فاليه أتوجـه بشـكرى وامتنـانى وخالص تقـــديرى ٠

كما لا يسعنى أيضا الا أن أتقـدم بشـكرى الى الدكتور/عـبد اللـه سليمان الذى تولى قراءة بعض فصول هـذا الكتاب قراءة نقدية . سمحت لى بالوقوف على بعض الملاحظات التى أخذتها فى اعتبارى عند كتابة الفصول الأخرى ٠ فاليه جزيل شـكرى وامتنانى ٠

ولزاما على أن أتوجه بشكرى الى زملائى من اعضاء هيئة التـدريس والأخصائيين النفسيين ممن أمدونى بتشجيعهم أو أسـهموا بجهودهم فى جانب أو آخر من جوانب هـذه الدراسـة ٠

كما أن نفسى لتحمل جليل التقدير لهؤلاء العاملين فى الهيئات الحكومية والقطاع العام ، والدارسين فى الجامعات والمعـاهد العليا ، الذين قبلوا طواعية المساهمة فى هـذه الدراسة من خلال الاجابة على بطارية الاختبارات التى كانت تستغرق قرابة الساعتين ونصف الساعة ٠ الأمر الذى لا يسعنى امامه

الا الشكر والامتنان لهـذا التعاون الذى تبدى فى أجل صوره فى الجدية التى أخذوا أنفسهم بها أثناء جلسات التطبيق ٠

كما أقدم أيضا خالص شكرى الى كل من الدكتور ريس Reas ، استاذ علم النفس والمدير السابق لقسم الادارة بالجامعـة الامريكيـة ، والدكتور صلاح حامـد رئيس مركز الحاسب الالكترونى بالجامعة الامريكية ، والدكتور كلير مدير قسم الادارة السابق بذات الجامعة الى ما قدموه لى من عون صادق مكننى من استخدام الحاسب الالكترونى فى اجـراء العمليات الاحصائية التى اقتضتها هـذه الدراسة ٠

كما انى أتوجه بشكرى العميق الى أسرتى ، والدتى واخوتى الذين أمدونى بتشجيعهم الكافى ، فضلا عما ساهموا به فى خلق نوع من المناخ الملائم سمح لى بتركيز طاقتى وجهـدى على العمل الحالى ٠

المـؤلف

اكتوبر ١٩٨١